النهار
السبت 2012-06-16 العدد 24762

دينهم لهم وكتابتهم لنا

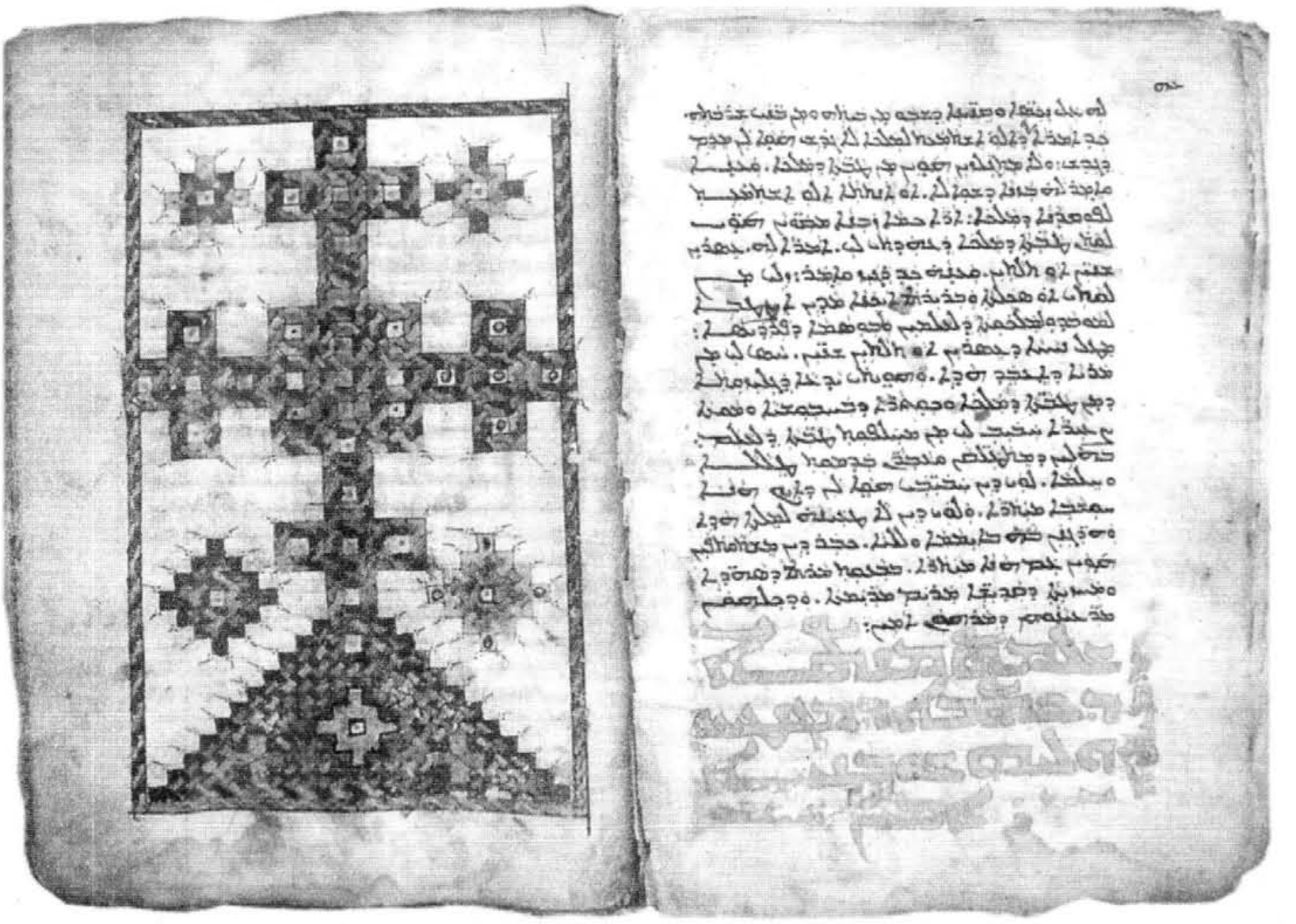

مخطوطان سريانيان من العراق.

أقام "مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات" في جامعة القديس يوسف ندوة أطلق فيها كتاب الدكتورة سيسيل كابرول، "الكتّاب النساطرة في بغداد 762-1258"، الصادر باللغة الفرنسية عن المركز، وهو باكورة سلسلة "مجموعة الأبحاث المسيحية العربية". يعرّف هذا البحث بالدور الذي لعبه كبار الموظفين من النصارى السريان في إدارة الدولة العباسية، ويكشف عن شراكة إسلامية مسيحية خفيّة تخطّت في كثير من الأحيان الحدود التي فرضها الشرع والفقه.

محمود الزيباوي

يصعب تحديد مهنة "الكاتب" الرسمي بشكل دقيق، وهو في العنوان الفرنسي لهذا البحث "السكرتير"، غير أنّ التعرّف إلى مهنته وصفاتها يظهر أنّ دوره يتجاوز في أحيان كثيرة هذا الموقع المتواضع. فالكتّاب أنواع ورتب، وأرفعهم شأناً موظفون احتلوا واجهة العمل الإداري وكان لهم نشاط ثاقب في الشأنين السياسي والاجتماعي. يتناول البحث الكتّاب النساطرة في بغداد زمن الخلافة العباسية الذي ناهز الخمسة قرون، والنساطرة طائفة من الطوائف المسيحية الرئيسية، وهم أتباع الكنيسة السريانية الشرقية التي عُرفت في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية، نسبة إلى بطريرك إنطاكية نسطور الذي "أُدين" وعُزل عن كرسيه عام 431. استقلّ أتباع نسطور عما يُعرف بـ"الكنيسة الجامعة" عقائدياً وإدارياً، وشكّلوا خارج العالم البيزنطي كنيسة حية نمت في ظلّ الساسانيين، وتحوّلت في زمن العباسيين إلى ما يُشبه "كنيسة الدولة". عُرف أتباع هذه الكنيسة بـ"النساطرة" حتى منتصف القرن الخامس عشر حيث اتحد فريق منها بكنيسة روما الكاثوليكية، وأطلق البابا أوجينس الرابع على هذا الفريق اسم "الكلدان". في مرحلة لاحقة، عُرف أتباع الكنيسة الذين رفضوا هذا الاتحاد بـ"الأشوريين"، وشاعت هذه التسمية في الزمن الحديث.

أظهر أهل الاختصاص الدور الكبير الذي لعبه المسيحيون في الحقول العلمية والفكرية المختلفة في زمن العباسيين، وعرّفوا بسلالات الأطباء التي اعتمدها الخلفاء، كما عرّفوا بنتاج المفكرين السريان الذين عملوا في ميدان التأليف والنقل والتعريب، غير أن قلة من هؤلاء المختصين أشارت إلى الدور الذي لعبه "الكتّاب" السريان في الدولة. في تصديرها لكتابها، تقول سيسيل كابرول إنّ الذين اهتمّوا بها الشأن أربعة من كبار العلماء، هم لويس شيخو، لويس ماسينيون، جيرار تروبو وجان موريس فييه. ترك شيخو عند وفاته في عام 1929 مجموعة من الوثائق تشكّل خزانة من المعلومات الخاصة بهؤلاء الكتّاب، ونشر ماسينيون عام 1942 دراسة تناول فيها دور الكتّاب الذي خرجوا من دير قني الواقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة في نهاية القرن التاسع، وتحدّث في هذه الدراسة عن "السياسة الإسلامية المسيحية" التي تميّز بها هؤلاء الكتّاب في "بلاط بغداد". بعدها، ساهم كل من تروبو وفييه بالتعريف بنشاط هؤلاء الكتّاب من خلال دراسات تناولت تاريخ المسيحيين السريان ونتاجهم في العصر العباسي الطويل. يكمل بحث سيسيل كابرول هذه الطريق، ويمكن القول إنه أول كتاب مخصّص بأكمله لهذه الموضوع المثير.

في المقدّمة المطوّلة التي افتتحت بها كتابها، تعرّف الباحثة بالنساطرة، وموقعهم المتقدّم في حضن الخلافة العباسية. مع أفول السلطة الأموية، وانتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد، عظم شأن هذه الطائفة وباتت الملّة النصرانية الأقوى. تقدّمت الكنيسة النسطورية على الكنائس الأخرى، وحصلت من الدولة على إقرار بهذا التقدّم. انصهرت الكنيسة النسطورية في دار الخلافة بشكل كبير، وانتقل بطاركتها إلى بغداد، عاصمة الخلافة، ثم انتقلوا إلى سامراء حين صارت هذه المدينة الجديدة عاصمة للخلافة. وتبدّلت أحوالهم وتقلّبت بحسب تغيّر الأوضاع السياسية الصاخبة. عرفت الكنيسة السريانية الشرقية عهداً ذهبياً في العصر العباسي الأول، وفقدت الكثير من سلطتها في عهد تصدّع هذه الخلافة بعد منتصف القرن التاسع، غير أنها استمرّت في البقاء والعطاء بفضل أعلامها من الأطباء والعلماء والكتّاب.

في الفصل الأول، ندخل في عالم "الكتّاب" بفروعه ورتبه المختلفة. للوهلة الأولى، نخال أنّ الكاتب ناسخ فحسب، ثم نكتشف أنه موظّف عالي الشأن، وهو في أحيان كثيرة أشبه بمستشار خاص واسع النفوذ. انتقلت هذه المهنة إلى العرب من الروم والعجم، وازدهرت في دولة بني العباس، وبات لها شروطها الخاصة، وهي كثيرة، كما كتب ابن خلدون في "المقدمة"، "وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب"، وفيها: "أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم. فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة. بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها. وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم. لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون".

بين الشرع والسياسة

في الفصل الثاني من البحث، ترصد الكاتبة دخول السريان النساطرة في هذه المهنة، وتوليهم أعظم المناصب في الدولة، ويبدو هذا الأمر "غريبا" في دولة إسلامية تتبنى الشرع وتسير بموجبه. يجمع الفقهاء بشكل عام على رفض تولي أهل الذمة المناصب الإدارية في الدولة، ويستند هذا المنع إلى مجموعة من الآيات القرآنية، منها: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المائدة، 51). "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين" (المائدة، 57). "كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون" (التوبة، 8).

تجاوز أصحاب السلطة والحكم هذا "المنع"، وأحاطوا أنفسهم بكتّاب من غير المسلمين، وكان للنساطرة دور كبير في هذا الميدان، فبرزت منهم سلالات من الكتّاب تردّدت أخبارها في المصادر الإسلامية العربية كما في المصادر المسيحية السريانية والعربية. في العصر العباسي الأول، حافظ النساطرة على موقعهم، وشكلوا طائفة لها ثقلها، وفرضوا أنفسهم بكفاءتهم ومؤهلاتهم العالية. في "عيون الأخبار"، يخبرنا ابن قتيبة أن الخليفة عمر بن الخطاب قال لحامي البصرة أبي موسى الأشعري: "ادع لي كاتبك ليقرأ لنا صحفاً جاءت من الشام"، فأجابه: "إنه لا يدخل المسجد"، ولما سأله الخليفة عن السبب، أخبره أنّ الكاتب نصراني، فرفع عمر بن الخطاب يده وضرب فخذه، وذكّره بالآية الشهيرة: "يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنّصارى أولياء". فقال أبو موسى: "له دينه ولي كتابته"، فأجابه عمر: "لا أكرمهم إذ أهانهم اللّه ولا أعزّهم إذ أذلّهم اللّه ولا أدنيهم إذ أقصاهم اللّه".

اتبع العديد من الخلفاء طريق أبي موسى الأشعري، وتقرّبوا من الكتّاب النساطرة، فكان لهؤلاء دينهم، وكانت كتاباتهم للخلفاء. نجد في مصدر سرياني عربي رواية بالغة الدلالة تفسّر هذا الاختيار. وفقا لهذه الرواية، أولى الخليفة المعتضد ثقته إلى كاتبه النصراني عبد الله سليمان، فحسده بعض المسلمين ولمّحوا الى أن الخليفة "يميل إلى النصارى". ولما وصل الخبر إلى المعتضد، خاطب كاتبه وقال له: "إذا وجدت نصرانياً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأن اليهود يتوقعون عودة الملك إليهم، وآمن من المسلم لأنه بموافقته لك في الدين يروم الاحتيال على منزلك وموضعك، وآمن من المجوس لأن المملكة كانت فيهم". باختصار، لا يشكل المسيحيون السريان خطراً على الدولة ولا يصبون إلى الحكم لأنهم لم يكونوا من أصحاب السلطة قبل دخول الإسلام، ولن يتولّوها من بعد. أدت هذه السياسة إلى شراكة سياسية خفية، برزت في فترات معينة، غير أنها لم تكن متواصلة، وتعثرت بشكل كبير في عهد المتوكل حيث أبعد أهل الذمة عن الدواوين وأعمال السلطان، وفرضت عليهم سلسلة من القرارات التعسّفية الخاصة بلباسهم وزيّهم. على رغم ذلك، عاد الكتّاب السريان إلى موقعهم، واستعادوا دورهم وإن بدرجة أقل، كما يظهر البحث بشكل علمي مجرّد من الاعتبارات والحساسيات.

الوساطة المستمرّة

تتابع على كرسي الدولة العباسية سبعة وثلاثون خليفة، وتتابع على كرسي كنيسة الشرق النسطورية ستة وثلاثون بطريركاً. تحصي سيسيل كابرول في بحثها أسماء مئة وخمسة عشر كاتبا نسطوريا، منهم خمسة وثلاثون دخلوا في الإسلام. اعتنق هؤلاء دين الدولة بشكل "فردي"، وتولوا في بعض الأحيان منصب الوزارة الذي يبقى حكرا على المسلمين، غير أن عائلاتهم بقيت على دينها، وساهم هذا الوضع في إرساء دعائم "السياسة الإسلامية المسيحية" في بغداد، بحسب تعبير لويس ماسينيون. وأبرز مثال على ذلك العلاقة الوطيدة التي جمعت صاعد بن مخلد، الوزير المسيحي الذي دخل الإسلام، بأخيه النصراني المدعو عبدون. من جهته، يرى جان موريس فييه أنّ دخول الكثير من المسيحيين الإسلام في العقود الأخيرة من القرن التاسع أدّى إلى وصول عدد منهم إلى السلطة بصورة غير متوقعة، وبرزهم الكتّاب المتحدرون من مدرسة دير قنّى، وقد ظلّ نفر من أفراد أسرهم على دين آبائهم، كالنساء منهم خصوصاً. "كان من شأن هذا أن يحدث، في ظروف أخرى، قطيعة جذرية، لكن المسلمين الجدد في هذه الحالة لم يتنكّروا لأصولهم، بل أن أقاربهم الذين ظلوا على النصرانية قد تمكنوا بواسطتهم من تحسين حالهم بعض الشيء".

يلقي الفصل الأخير من الكتاب الضوء على دور الكتّاب كوسطاء لأبناء طائفتهم في الدولة، ويكشف عن دورهم الخفي في انتخاب بعض البطاركة، كما يكشف عن حضورهم في بعض محافل الأدب والفكر والعلم، وقد حافظوا على هذا الحضور في زمن تفكك الدولة العباسية واحتضارها، متجاوزين الكثير من الصعاب التي اختبروها في تلك الحقبة المظلمة من تاريخهم الطويل.

يلقي الفصل الأخير من الكتاب الضوء على دور الكتّاب كوسطاء لأبناء طائفتهم في الدولة، ويكشف عن دورهم الخفي في انتخاب بعض البطاركة، كما يكشف عن حضورهم في بعض محافل الأدب والفكر والعلم، وقد حافظوا على هذا الحضور في زمن تفكك الدولة العباسية واحتضارها، متجاوزين الكثير من الصعاب التي اختبروها في تلك الحقبة المظلمة

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"